

المسيح في الإنجيل للقديس لوقا

بحسب تفسير القديس كيرلس الأسكندري [1] 1

د. موريس تاووروس

كيف ندرك سر المسيح [2] ؟

إنه من المستحيل أن ندرك معنى سر المسيح بالضبط إن كنا نستعمل لهذا الغرض عقلاً فاسدًا، وذهنًا . كما لو كان . غارقًا في النوم . فالأمر يحتاج بالحرى إلى عقل يقظ، وبصيرة ثاقبة، لأن الموضوع يصعب فهمه إلى أقصى درجة. لذلك نحن ننادي على أولئك الذين يريدون أن يفتشوا الكتب المقدسة، فنقول لهم: " قوموا واستيقظوا " [3].

على أن القديس كيرلس يوضح أن إدراك سر المسيح هو تعليم إلهي، فعندما اعترف بطرس بإيمانه، قال له الرب . بحسب ما ورد في الإنجيل للقديس متى . " طوبى لك يا سمعان ابن يونا لأن لحماً ودمًا لم يعلن لك، لكي أباي الذي في السموات " (مت 16:17).

ويعلق القديس كيرلس على ذلك فيقول: لذلك فالتلميذ تعلم حقًا من الله . وهو لم يجيء لنا بهذا الاعتراف بالإيمان من مجرد أفكاره الخاصة، بل بسبب أن النور الإلهي أشرق على ذهنه، وقاده الأب إلى معرفة صحيحة لسر المسيح [4].

فليتنا . فيما يقول القديس كيرلس . نسأله الحكمة ونطلب الفهم، كي يمكننا أن ندرك معنى كلماته بالضبط، فهو الذي " يكشف الأغوار في الظلام، ويخرج الأمور الخفية إلى النور (أي 12:22) ويعطي الحكمة للعميان ويجعل نور الحق يضيء على أولئك الذين يحبونه، ومن بينهم نحن [5].

إن لغة الكتاب الإلهية الموحى بها دائمًا عميقة، فلا ينكشف معناها لمن عندهم مجرد رغبة فقط أن يفهموها، بل لأولئك الذين يعرفون أن يفحصوا أغوارها جيدًا، وقد اغتنوا بالنور الإلهي في ذهنهم، ذلك النور الذي بواسطته يبلغون إلى معنى الحقائق الخفية. لذلك فليتنا نطلب الفهم الذي يأتي من فوق، من الله، مع استتارة الروح القدس، حتى نبلغ إلى منهج سليم لا يخطئ. وبهذا المنهج يمكننا أن نرى الحق الذي تحويه كلمة الله [6].

ألوهية المسيح:

نحن نؤمن بأن الابن الوحيد كلمة الله هو الله، وهو ابن الله بالطبيعة، وأنه غير مخلوق ولا مصنوع بل هو خالق الأشياء. وليس سموه هكذا فقط، بل هو بالحرى جوهريًا مع الأب عالٍ فوق الكل. ونحن نؤمن أن الكلمة، مع أنه هو الله فقد صار جسدًا أي إنسانًا، وليس أنه اصطحب معه إنسانًا في كرامة متساوية، كما يتجاسر البعض وينكرون ويقولون بأن كلمة الله الذي من الأب نعتبره ابناً على حدة، أما الذي خرج من العذراء القديسة فهو آخر إلى جواره منفصلاً عنه وعلى حده. أما نحن فنوافق المبارك بولس إذ يقول: " رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة " (أف 4:5). فنحن لا نقسم غير المنقسم، ولكن نعترف بمسيح واحد: الكلمة الذي من الله الأب، الذي تجسد وصار

إنسانًا، الذي تعبدته الملائكة وتكرمه. ونحن أيضًا نسبحه معهم ونكلله بالمجد الإلهي، ليس كإنسان أصبح إلهًا، بل كإله صار إنسانًا.

يكتب المغبوط بوحنا " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله " (يو 1:1)، فإن كان مخلوقًا فلا بد أنه يكون له بداية وجود، ولا بد أنه قد كان هناك زمان سابق على وجوده، وكان لابد أيضًا من وجود زمان، لم يكن فيه الأب أبًا كما يدل اسمه، بل لم يكن على الإطلاق أبًا بالطبيعة، ولذلك تكون الكلمة أتت إلينا بشأنه غير صحيحة، وهكذا يصير أيضًا بالنسبة للابن، ويكون كلا الاثنين قد دُعيا هكذا كذبًا [7].

قال السيد المسيح: " لا أحد يعرف الابن إلا الأب ولا الأب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له ". فكيف تفكرون وقولون إنه أدنى من الأب وهو الذي يقول: " ليس أحد يعرف الابن إلا الأب فقط"، كأنكم تعرفون بالضبط من هو؟ ومع ذلك فكيف أن ذلك الذي يعرفه الأب فقط، لا يتعالى كثيرًا جدًا على قدرات الكلام، تمامًا مثل الأب نفسه أيضًا الذي هو معروف من ابنه فقط؟ لأن الثالث الواحد في الجوهر هو وحده الذي يعرف نفسه، إذ هو فائق جدًا على كل كلام وفهم. فكيف تقول أنت إذن إنه أدنى من الأب، بينما ترى أنه لا أحد يعرف من هو إلا الأب الذي ولدته فقط؟.

دعونا نرفع أنفسنا إلى فحص امتيازات الأب، وتلك الصفات التي تختص به كإله. فالله الأب بالطبيعة هو الحياة والنور والحكمة، ولكن الابن أيضًا بالمثل هو كذلك كما تشهد الكتب الإلهية الموحى بها في مواضع كثيرة، فهو النور والحياة والحكمة. ولكن إن كان هو أدنى من الأب، يكون مديونًا له بهذه الصفات، وليس في صفة واحدة، بل في كل الخصائص التي تختص بجوهره. ولن يكون هو الحياة كاملة ولا النور كاملاً ولا الحكمة كاملة. وإن كان هذا صحيحًا؛ إذن يكون فيه شيء من الفساد، وشيء أيضًا من الظلم وأيضًا شيء من الجهالة. ثم إن الإنسان يُولد من الإنسان، وكل الأوصاف التي في جوهر أبيه تُوجد كلها في المولود. هكذا بالمثل بالنسبة لباقي الحيوانات، تنظمها قوانين طبيعتها الخاصة. فكيف إذن يكون لطبيعة الله الفائقة الكل أن تعاني ما لا تعانيه حتى نحن، ولا أي من الخلائق الأخرى [8].

إن الابن يملك على الكل مع الله الأب، ولا يمكن أن يُضاف شيء إلى مجده الملوكي، كأن يُزاد له من الخارج، أو كأنه يعطى له بواسطة آخر، ولا أن ينمو معه مع مرور الزمن، لأن مجده الملوكي أُشرق معه بلا بداية، فهو كائن منذ الأزل وما يزال كما كان. لذلك؛ فلأنه هو إله بالطبيعة وبالحق، فبالتالي ينبغي أن يكون كلي القدرة، وتكون هذه الخاصية هي له بلا بداية ولا نهاية، إذ يقول أيضًا واحد من الأنبياء القديسين " الرب سيملك إلى الدهر والأبد " (خر 15:18)، والمرنم الإلهي يتغنى قائلاً: " ملكوتك ملكوت أبدي " (مز 134:13س). وأيضًا " الله ملكنا قبل الدهور " (مز 72:12س)، فإذا كان الله دائم الملوكية وكلي القدرة، فبأي معنى يقول أولئك الذين يدعون الله أبًا في توسلاتهم " ليأت ملكوتك ". يبدو أنهم يريدون أن يروا المسيح مخلص الجميع ناهضًا مرة أخرى فوق العالم، لأنه سيأتي، نعم سيأتي وينزل كديان، ولكن ليس بعد في هيئة متواضعة مثلنا، ولا في وضاعة الطبيعة البشرية، ولكن في مجد كما يليق بالله، الذي يسكن في نور لا يُدنى منه (1تي 6:12) ويأتي مع الملائكة. فهكذا قال هو نفسه في موضع ما: " ابن الإنسان سيأتي في مجد أبيه مع ملائكته القديسين " (مت 27:16).

ويبرهن القديس كيرلس على ألوهية السيد المسيح من أنه يصنع المعجزة بقوته الذاتية، ففي حديثه عن شفاء المرأة التي بها روح ضعف (لو 13:10) يقول: " أتوسل إليك أن تلاحظ هنا أن المسيح مخلص العالم، لم يقدم أية صلاة، بل تم الأمر بقوته الذاتية وشفائها بكلمة ويلمسه يده؛ لأنه بسبب كونه ربًا وإلهًا، أظهر أن جسده الخاص له فاعلية مساوية مع نفسه؛ لتحرير البشر من أمراضهم" [9].

وبقوته الإلهية انتهر الأرواح النجسة (لو 4:35،36)، فجعل المعجزة تحدث بعد كلماته مباشرة، وذلك حتى لا نسقط في عدم الإيمان. لقد صنع المعجزة دون أن يقدم صلاة، ولم يُسأل من أي أحد آخر أية قوة، لتتميم هذه المعجزات. ولكن إذ هو نفسه كلمة الله الأب، الكلمة الحي الفعال الذي به توجد كل الأشياء، والذي فيه توجد كل الأشياء، فإنه بشخصه سحق الشيطان وأغلق الفم الدنس للشياطين النجسين [10].

ويقول القديس كيرلس: إن المسيح لم يستعر القوة من آخر. إنه هو بالحرى الذي كان يعمل بقوته الخاصة. كان يعمل كإله ورب، وليس كشخص يشترك في نعمة إلهية. إن قوة المسيح للشفاء لم تكن قوة بشرية، بل هي قوة إلهية فائقة لا تُقاوم، لأنه هو الله وابن الله [11].

وبالنسبة لصلة الآلام باللاهوت يقول:

وأظن أنه من الضروري أن أضيف لما قيل، إن أوجاع الحزن والكآبة لا يمكن إرجاعها إلى طبيعة الكلمة الإلهية التي هي غير قابلة للألم، لأنه من المستحيل أن تتألم، إذ أن هذه الطبيعة تلعو عن كل ألم. ولكننا نقول: إن الكلمة المتجسد شاء أن يُخضع نفسه إلى قياس الطبع البشري، بأن فرض على نفسه بأن يُقاس ما يخصه (أي الطبع البشري). وحيث إنه قيل إنه جاع، مع أنه الحياة وسبب الحياة والخبز الحي، وقيل إنه تعب من رحلة طويلة، مع أنه رب القوات، هكذا قيل أيضًا إنه حزن وبدا أنه قادر أن يتألم، لأنه لم يكن من المناسب أن هذا الذي أخضع نفسه للإخلاء، أن لا يشترك في معاناة الأمور البشرية. فكلمة الله الأب إنن هو خال تمامًا من كل ألم. ولكن بحكمة ولأجل التدبير، فإنه أخضع ذاته للضعف البشري، حتى لا يظهر إنه يرفض ما يتطلبه التدبير (تدبير الجسد). حقًا، إنه قد استسلم تمامًا للطاعة وللعوائد البشرية والنواميس، مع أنه . كما قلت . لا يحمل أي شئ من هذه الأمور في طبيعته الخاصة [12].

اتحاد الطبيعتين

رأي القديس كيرلس في شريعة تطهير الأبرص، إشارة إلى سر المسيح. فالناموس يحدد بوضوح الطريقة التي تُعلن بها طهارة الأبرص فيقول: هذه تكون شريعة الأبرص يوم طهره. يؤتى به إلى الكاهن. ويأمر الكاهن أن يُؤخذ للمتطهر عصفوران حيان طاهران، ويأمر الكاهن أن يُذبح العصفور الواحد في إناء خزف على ماء حي، أما العصفور الحي فإنه يغمسه في دم العصفور المنبوح على الماء الحي ويُرش على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره، ثم يُطلق العصفور الحي على وجه الصحراء (لا 14:7). هذا المثال . فيما يقول القديس كيرلس . يمثل لنا السر العظيم والمُكرّم الذي لمخلصنا، لأن الكلمة من فوق، أي من الأب، من السماء، ولهذا السبب، من المناسب جدًا أن يُقارن بطائر. فرغم أنه نزل لأجل تدبير الخلاص ليأخذ شكلنا أي يأخذ صورة عبد، إلا أنه رغم ذلك كان من فوق، كما قال المسيح نفسه: " أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق " (يو 8:3)، وقال أيضا

إلا ابن الإنسان الذي نزل من السماء" (يو3:13). فهو، حتى حينما صار جسداً، أي إنساناً كاملاً، لم يكن أرضياً وليس مصنوعاً من طين مثلنا، بل كان سماوياً ويفوق الأشياء العالمية من جهة لاهوته. فيمكننا أن نرى إذن في العصفورين المقدمين في تطهير الأبرص، يمكننا أن نرى المسيح متأماً بالجسد حسب الكتب، ولكنه يظل متعالياً على الآلام. نراه مائتاً في طبيعته البشرية الإلهية، لأن الكلمة هو الحياة "مماثلاً في الجسد، ولكن مُحيي في الروح" (1بط3:18). ورغم أن الكلمة لا يمكن أن يقبل آلام الموت في طبيعته الخاصة، إلا أنه ينسب إلى نفسه ما تألم به جسده. العصفور الحي اعتمد في دم العصفور الميت، وهكذا اصطبغ بالدم، وإذ صار مشتركاً في الآلام، فإنه أُطلق حراً إلى الصحراء. وهكذا أيضاً رجع كلمة الله الوحيد إلى السماء مع الجسد الذي اتحد به.

فرغم أنه كان هناك عصفوران، إلا أن الذي كان يشير إليه العصفوران هو واحد فقط، كمتألم وكحُر من الآلام، كمائت وكمن هو فوق الموت. فإذ قيل إن العصفورين يشيران إلى ابنين وإلى مسيحين، وأن كلمة الله الأب هو مسيح واحد بمفرده، وأن ذلك الذي جاء من نسل داود هو مسيح آخر، فإذا وجد حسب قولهم هذا، ابنان، فبالضرورة يكون هناك ريان، وإيمانان، ومعموديتان؛ بينما بحسب ما كتب القديس بولس هناك فقط: "رب واحد وإيمان واحد ومعمودية واحدة" (أف4:5). فنحن نعترف برب واحد، هو كلمة الله الوحيد المتجسد، غير فاصلين بين الناسوت واللاهوت، بل نؤكد بإخلاص، أن كلمة الله الأب صار هو إنساناً في الوقت الذي استمر فيه لها [13].

حينما كان يشفي السيد المسيح المرضى، قيل " جميع الذين كان عندهم مرضى بأنواع مختلفة، قدموهم إليه فوضع يده على كل واحد منهم فشفاه" (لو4:38)، وبهذا يوضح الإنجيل أن جسد بشرتنا المقدس الذي جعله جسداً له وملاًه بالقوة الإلهية، كان يمتلك الحضور الفعال لقدرة الكلمة، قاصداً بذلك أن يعلمنا أنه رغم أن كلمة الله الوحيد قد صار مثلنا، إلا أنه بالرغم من ذلك، لا يزال إلهاً، ويستطيع بسهولة بواسطة جسده الخاص أن يتم كل الأشياء، لأنه استخدم هذا الجسد كأداة لعمل المعجزات. ولا يوجد أي سبب للتعجب من هذا، بل على العكس، فيمكنكم أن تلاحظوا كيف أن النار عندما توضع في إناء نحاسي فإنها تنقل إلى الإناء قوة إنتاج تأثيرات الحرارة. هكذا أيضاً فإن كلمة الله الكلي القدرة، إذ قد وُحِدَ الهيكل الحي العاقل المأخوذ من العذراء القديسة مع نفسه اتحاداً حقيقياً، فإنه ملاًه بالقوة التي تظهر قدرته الإلهية بصورة فعالة. لذلك فلكي يُخجل اليهود فهو يقول: " إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال" (يو10:37،38). وبشهادة الحق نفسه هذه يمكننا أن نرى أن الابن الوحيد، لم يعط مجده "لإنسان" منفصل عنه وغيره هو نفسه، ويعتبر مولود المرأة. بل بالحرى إذ هو الابن الوحيد مع الجسد المقدس المتحد به، فإنه قد صنع المعجزات، وهو يُعبد أيضاً من خليفة الله [14].

وعندما دخل الرب إلى بيت بطرس، وهناك كانت امرأة ممدودة على فراش مرهقة من حمى شديدة، وبدلاً من أن يقول كإله: " اتركي المرض وقومي، " فإنه سلك طريقاً آخر؛ فإنه لكي يبين أن جسده يملك قوة الشفاء لكونه جسد الله " لمس يدها" (مت15:8)، ولذلك تركتها الحمى. فما أعظم فاعلية لمسة جسده المقدس، فإنها تطرد الأمراض من كل نوع، وتطرد جمعاً من الشياطين، وتطرح قوة إبليس عنا. وتشفي جمعاً كبيراً من الناس في لحظة من الزمان. ورغم أنه يستطيع أن يعمل المعجزات بكلمة وبمجرد ميل إرادته، إلا أنه لكي يعلمنا شيئاً نافعاً فهو يضع يديه على المرضى أيضاً، لأنه كان لازماً، بل ولازماً جداً لنا أن نتعلم أن الجسد المقدس الذي جعله جسده الخاص،

كان مزودًا بفاعلية قوة الكلمة، بأن زرع فيه قوة إلهية. لذلك فلندعه يمسك بنا، أو بالحرى فلنمسك نحن به بواسطة الإفخارستيا السرية، لكي يحررنا من أمراض النفس ومن هجمات الشياطين وعنهم[15].

إن الطبايع التي اجتمعت إلى هذا الاتحاد الحقيقي، هي مع ذلك مختلفة عن بعضها، ولكن من الاثنين معًا (أي من الطبيعتين) هو واحد، أي الله الابن دون أن يضيع تمايز الطبيعتين بسبب الاتحاد. لأنه قد صار اتحاد من الطبيعتين، ولذلك فنحن نعترف بمسيح واحد، ابن واحد. ونحن بالإشارة إلى فكرة الاتحاد هذه بدون اختلاط، فإننا نعترف بالقديسة العذراء والدة الإله، لأن الله الكلمة أخذ جسدًا وصار إنسانًا، وبالحبل به في بطنها وجد الهيكل الذي اتخذها منها بنفسه. فإننا نري أن الطبيعتين . بواسطة اتحاد لا انفصال فيه . قد اجتمعتا معًا فيه، بدون اختلاط وبدون انقسام، لأن الجسد هو جسد وليس لاهوتًا، رغم أنه قد صار جسد الله، وينفس الطريقة أيضًا، فإن الكلمة هو إله وليس جسدًا، رغم أنه بسبب التدبير قد جعل الجسد جسده. ولكن رغم أن الطبايع التي اجتمعت في تكوين الاتحاد، هي مختلفة إحداهما عن الأخرى كما أنها غير متساوية بعضها مع بعض، إلا أن ذلك الذي تكون من الطبيعتين معًا هو واحد فقط. ونحن لا نفصل الرب الواحد يسوع المسيح إلى إنسان على حدة، وإله على حدة، بل نحن نوكد أن المسيح يسوع هو واحد، وهو نفسه، معترفين بالتمايز بين الطبيعتين بدون أن نخلطها الواحدة مع الأخرى[16].

لذلك فهو أقام ذاك الذي كان ذاهبًا إلى قبره. وطريقة إقامته كانت واضحة؛ لأن الإنجيلي يقول: "لمس النعش وقال: أيها الشاب لك أقول قم"، ومع ذلك فكيف لم تكن كلمة منه كافية لإقامة الشاب الذي كان راقدًا في النعش. لأن أي شيء يكون صعبًا أو يعسر تحقيقه أمام كلمته؟! فما هو أكثر من كلمة الله؟. فلماذا إذن لم يتم المعجزة بكلمة فقط؟. يا أحبائي إنه فعل هذا لكي تعرفوا أن جسد المسيح المقدس فيه فاعلية وقوة لخلص الإنسان. لأن جسد الكلمة القدير هو جسد الحياة، وقد اكتسى بقدرته. بل لاحظوا كيف أن الحديد حينما يدخل في النار، ينتج تأثيرات النار ويحقق وظائفها. هكذا أيضًا، لأن الجسد صار جسد الكلمة الذي يعطي الحياة للكل، ولذلك صار له قوة إعطاء الحياة، وهو يلاشي تأثير الموت والاضمحلال[17].

1 أُلقيت هذه المحاضرة بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية يوم 5 نوفمبر 2001م.

1 تعتمد هذه الدراسة على تفسير القديس كيرلس الأسكندري للإنجيل حسب القديس لوقا . ترجمة د. نصحي عبد الشهيد.

2 الجزء الثاني ص 29.

4 الجزء الثاني ص 34.

5 الجزء الثاني ص 137.

6 الجزء الثالث ص 55.

7 الجزء الثاني ص 123.120.

8 الجزء الثاني ص 141.137.

9 الجزء الرابع ص 20.

10 الجزء الأول ص 104، 105.

11 الجزء الأول ص 122.

12 الجزء الخامس ص 134.

13 الجزء الأول ص 118 ، 119.

14 الجزء الأول ص 107.

15 الجزء الأول ص 108.

16 الجزء الأول ص 27.

17 الجزء الأول ص 193.